الباب الثالث

النثر الجاهلي

- النثر الفني، خصائصه
- خلاف النقاد العرب والمستشرقين في بدء ظهوره

obeikandl.com

obeikandl.com

النثر الجاهلي

النثـــر هـــو الكـــلام الذي لم ينظم في أوزان وقوافي و النثر العربي نوعان : **نثر عادي , و نثر فني .**

فالنثر العادي هو ذلك اللون الذي يقال في لغة التخاطب اليومية بين الناس في حياتهم العادية , وليس لهذا اللون قيمة أدبية لأن المتحدث بـــه لا يولـــيه عناية بالألفاظ أو انتقاء للكلمات مما يجعله غير مثير للانتباه وغير مسترع للأسماع .

أمـــا النوع الثاني وهو **النثر الفني** فهو ذلك اللون الأدبي البعيد عن الوزن والقافية المعتمد علي حسن الصياغة وانتقاء الألفاظ وخصوبة الخـــيال بما يجعله مؤثراً في النفوس مثيراً للانتباه محركاً للمشاعر موقظا للأحاسيس آسراً للأفئدة .

- وهـــذا النوع من النثر يتفرع إلى فرعين كبيرين هما : الخطابة والكتابة الفنية ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني وهي تشمل القـــصص المكـــتوبة كما تشمل الرسائل الأدبية المجودة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة[١] .

ويشمل هذا النوع أيضاً مجموعة من الفنون التي راجت في العصر الجاهلي وهي الخطابة ، والحكم ، والأمثال ، والوصايا والمحاورات والقصص ، وسجع الكهان ، والمناقرات .

---

[١] الفن ومذاهبه في النثر العربي د/شوقي ضيف صـــ١٢ــ دار المعارف

الخطابـــة

وهي من ألوان النثر ، عمادها اللسان ، كما أن الكتابة عمادها القلم ، وتعـــرف الخطابـــة بأنهـــا : فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة .

وقـــد انتـــشرت الخطابة وصار لها في العصر الجاهلي شأن عظيم وذلـــك لأنهم استخدموها في التحكيم بين الخصومات وإصلاح ذات البـــين وتحمـــل الـــدماء ، وفـــي المنافرات والمناظرات بالأحساب والأنساب والمناقب والمآثر والدعوة إلى الحرب وسفك الدماء ، وفي مناسبتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار.

وقـــد اتخـــذوا من الأسواق والمحافل العظام ومن مضارب خيامهم ووفـــادتهم على الملوك والأمراء ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال ونسج الكلام .

ومـــع أن العرب أمة أمية ، ولم تكن أمة كاتبة حتى تعبر عما تريد بـــالقلم ، وتـــودع مكنون صدورها صفحات الكتب – إلا أنهم كانوا يدركـــون قـــيمة اللفـــظ ، ووزن العـــبارة ، فالكلمة البليغة تقيمهم ، والعبارة الرقيقة تقعدهم ، كما أن البيت في الشعر يرفع شأن قبيلة ، ويحط من قدر أخرى ، حيث كان للكلمة الرائعة أثر بالغ في نفوسهم فهي تفعل في النفوس فعل السحر .

- ومعلوم أن الخطابة إنما تقوى وتزدهر وتنهض وتنشط في ظلال الحرية وكنفها حيث تستطيع الناس عامة والخطباء خاصة أن يعبروا عـن آمالهم ومشاعرهم وأفكارهم ، ففي ظلال الحرية تتقارع الآراء وتتـصارع الأفكـار ، وتتنازع المبادئ ، وتتنافس المذاهب وتتعدد الخصومات ، وفي ذلك كله الغذاء للخطابة والمداد لها والداعي إليها والجاهليون لم يكن ينقصهم شيء من الحرية فقد كان إقليمهم طليقا ، كـل شيء فيه يحيا حراً على الفطرة ، فعاشوا ككل من حولهم ، لا يقيدهم قيد ، ولا يدينون لحاكم , ولا يخضعون لقانون .

وكـان مما أعانهم على الخطابة وأسعفهم عليها ، ملكاتهم البيانية ، ومـا فطروا عليه من خلابة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، وفـي ذلـك يقـول الجـاحظ : (وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجـال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكـرة ، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام , أو حين يمتح على رأس بئر , أو يحدو ببعير أو عـند المقارعة أو المناقلة أو عند الصراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يـصرف وهمـه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتـيه المعانـي إرسالاً " أفواجا " وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً .....

وكـان الكـلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه اقدر وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلم

أوجـــد ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر .... من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب)[١] .

وهناك دلائل مختلفة تدل على أن منزلة الخطيب في الجاهلية كانت فـــوق منـــزلة الشاعر ، يروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : (وكـــان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الـــشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومـــن غـــزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر)[٢] .

– وقد اتسعت في هذا العصر وظيفة الخطيب إذا كان يفاخر وينافر عـــن قـــومه فيـــشترك بذلك مع الشاعر ، كما كان يشترك معه في الحض على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة كالوفادة على الملوك ، والنـــصح والإرشاد ، وخطبهم في الإملاك والزواج مشهورة ، ومن أهم المواقف التي كان يتفرد بها الخطيب : (أنه كان يدعو إلى السلم وأن تـــضع الحرب بين القبائل والمتخاصمين أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب)[٣] .

---

[١] البيان والتبيين / جـــ٣ صـــ١٨ دار المعارف – بيروت

[٢] السابق جـــ١ صـــ١٦٦

[٣] الفن ومذاهبه في النثر العربي / شوقي ضيف صـــ٢٩ـــ ط١١ دار المعارف

ولعل ذلك هو ما جعل ربيعة بن مقروم الضبي يقول :

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة خطباؤنا بين العشيرة يفصل

- وقد تحدث الشعراء كثيراً عن الخطباء ومكانتهم بين قومهم، ومنزلتهم الرفيعة التي تبؤوها ومن ذلك قول عامر المحاربي :

أولئك قومي إن يلذ ببيوتهم أخو حدث يوماً فلن يتهضما

وكم فيهم من سيد ذي مهابة يهاب إذا ما راند الحرب أضرما

وهم يدعمون القول في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كظما

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما[1]

ولأن الخطابة تعتمد على اللسان ، وسرعة البيان فقد مجد العرب الخطابة المرتجلة التي يلقيها صاحبها مناسبة للمقام الذي يجد الخطيب نفسه فيه ، على عكس الكاتب البليغ صاحب القلم ، إذ هو في فسحة من الوقت ، يستطيع أن يغير ويبدل ، ويضيف ويحذف ، أما الخطيب البليغ صاحب اللسان ، فعليه أن يأتي في الوقت القصير من ترتيب الكلمات واختيار أسهلها وأعذبها وما يكون بينها وبين غيرها من الكلمات من مشاكلة ومزاوجة وغير ذلك ، ما يحتاج إلى وقت طويل وتفكير عميق .

وقد سأل أبو حيان التوحيدي أبا على بن مسكوية في أمر بلاغة اللسان وبلاغة القلم ، وكون الأولى أعسر من الثانية ، قال : لم

---

[1] الجبس : اللئيم المنقطع .

صـــارت بلاغة اللسان أعسر من بلاغة القلم ، وما القلم واللسان إلا آلـــتان ، وما مستقاهما إلا واحد ، والذي يدلك على قلة بلاغة اللسان إكبار الناس البليغ باللسان ، أكثر من إكبارهم البليغ بالقلم .

فأجابـــه أبو على : ذاك لأن البلاغة التي تكون بالقلم تكون مع روية وفكـــرة , وزمـــان متـــسع للانتقاء والتخير ، والضرب والإلحاق ، وإجالـــة الـــروية لإبدال الكلمة بالكلمة ..... فأما البليغ باللسان فهو حاضر الذهن ، سريع حركة اللسان بالألفاظ التي لا يقتصر فيها أن يـــبلغ مـــا في نفسه من المعنى حتى تتفرع له قطعة من ذلك الزمان الـــسريع إلـــى توشيح عبارته وترتيبها باختيار الاعذاب فالاعذاب ، وطلب المشاكلة والموازنة ، والسجع ، وكثير ما يحتاج في مثله إلى الزمان الكثير ، والفكر الطويل .

<u>أسلوب الخطابة في الجاهلية</u>

أمـــا أسلوب الخطابة في الجاهلية ، فكان رائع اللفظ خلاب العبارة ، واضـــح المـــنهج قـــصير السجع ، كثير الأمثال ، وذلك لأن خطباء الجاهلـــية كانوا ينتقون الألفاظ ويتحيرون المعاني ، فجاءت ألفاظهم غاية في الرقة والعذوبة والمعاني رائعة مألوفة .

يقـــول الـــزيات : (وقد امتازت الخطابة في الجاهلية بجريانها مع الطـــبع ، فلـــيس فيها تكلف ولا زخرف ولا غلو ، لحمتها الخيال ، وسداها البلاغة ، تسير مع أخلاق البدوي وبيئته ، فهو قوى اللفظ ،

متـــين التـــركيب قصير الجملة ، موجز الأسلوب ، قريب الإشارة ، قليل الاستعارة ، سطحي الفكرة ، وربما تساوقت فيه الحكم واطربت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة)[١]

- وكانـــت خطـــبهم معـــروفة بالطول والقصر ، بيد أنهم كانوا إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور ، وأذيع بين الناس ، حيث أنهم كانوا يتناقلونها مشافهة ويروونها كالشعر .

وكان للخطب عندهم أسماء خاصة كالعجوز والعذراء والشوهاء .

يقـــول الدكـــتور / شـــوقي ضيف : (من الصفات التي تميز عرب الجاهلـــية أنهـــم كانـــوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة ، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم احتفالاً شديداً لا من حيث الصقل وتجويد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث مخارج الكلام ، ولعلهم مـــن أجـــل ذلـــك كانوا يتزيدون في جهارة الأصوات ، كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاه)[٢]

- وكـــان للخطباء في الجاهلية عادات يلتزمون بها ، ومن عاداتهم فيها:

١- الوقوف على نشر من الأرض " مكان عالي من الأرض " .

٢- القيام على ظهر دابة .

---

[١] تاريخ الأدب العربي صـــ١٩ــ بتصرف

[٢] الفن ومذاهبه في النثر العربي صـــ٣٣

٣- طي العمائم على رؤوسهم .

٤- الإشارة في أثناء خطابتهم بالعصي والرماح والقضبان والقسي .

- كما كان العرب يمدحون في الخطيب جهارة صوته وشدته ، وحسن الشارة وسلامة المنطق ، ويعيبون ضيقه ودقته ، والارتعاش والرعدة ، أو الحصر والعي وكانوا يستحسنون فيه رباطة الجأش وقلة اللحظ وتخير الألفاظ .

ومن خطباء العرب في الجاهلية : أبو طالب بن عبد المطلب ، وعتبة بن ربيعة (خطيب قريش يوم بدر) وسهيل بن عمرو، وقس بن ساعدة الإيادي ، وأكثم بن صيفي ، ونفيل بن عبد العزى (جد عمر بن الخطاب) ،وقيس بن عاصم ، وعطارد بن صاحب زرارة .

obeikandl.com

نموذج

خطبة عبد المطلب بن هاشم يهنئ سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة

لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة ، أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنئة وتمدحه ، ومنهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم فاستأذنه في الكلام فأذن له فقال :

(إن الله – أيها الملك – أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً شامخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن وأطيب موطن .

فأنت – أبيت اللعن – رأس العرب وربيعها الذي به تخصب ، وملكها الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه .

نحن – أيها الملك – أهل حرم الله و وذمته ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة) [1]

والخطبة مبنية على السجع ، وهو ظاهر لتلك الخطابة فإن من يرجع إلى ما روى منها في كتب الأدب أو التاريخ يلاحظ أن أغلب ما

---

[1] جمهرة خطب العرب / أحمد زكي صفوت ج ١ صـ٧٦ـ المكتبة العلمية ببيروت

روى من خطب القوم روى مسجوعاً وهي مع ذلك قصيرة الجمل ، واضـــحة المعنـــى لما فيها من تقابل الأضداد ، بدأها بما يستهل به الكـــلام في مثل هذه المواقف ، من تهنئة الملك ومدحه والثناء عليه والـــدعاء له , كما تحس فيها عزة العربي وإبائه ؛ الذي يترفع عن العطاء ويسند النصر إلى واهبه وهو الله عز وجل .

نموذج أخر

خطـــب قـــس بن ساعدة الأيادي خطبة مسجوعة وكان فيها واعظاً مـــتأملاً ، تحـــس في كلامه خبرة المجرب وحكمة العقلاء ، وتؤدة النابهين فقال :

(أيهـــا الـــناس : اسمعوا وعوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات وذاهـــب وآت ، ضوء وظلام , وبر وآثام , لباس ومركب , ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ؟! أم حبسوا فناموا ؟!)[1]

من هذه النماذج يتضح أن الخطابة الجاهلية اختصت بـــ :

١- الاعتماد على السجع كنوع من الموسيقى ليسهل حفظها .

٢- الاعتماد على الحكم والأمثال .

---

[1] الفن ومذاهبه في النثر العربي صـــ٣٤ـــ

٣- قلة الترابط بين أجزائها .

٤- قصر فقراتها , واعتمادها على الصدق واستمدادها من البيئة .

٥- كما يغلب عليها الإيجاز , والخلو من اللحن , وكثرة الانتقال بين أفكارها .

كمـــا أن الخطابـــة العربية في العصر الجاهلي فقدت عنصر الوحدة الموضـــوعية ، وهذه الخصائص والمميزات لم تكن شيئا خاصاً بهذا الخطيب أو ذاك وإنما كانت شيئاً عاماً ، وقاسماً مشتركاً بين الخطباء جميعهم .

obeikandl.com

سجع الكهان

سادت في الجاهلية بعض المعتقدات وكان منها (الكهانة) وتعني الإخبار بالأمور المستقبلية ، أو التنبؤ بعلم الغيب ، وكانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعي وتزعم أنها تتطلع علي المغيبات ، وتعرف ما تأتي به ألواح الغد ، وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع ، وكانت هذه الطائفة تسمي الكهان ، وواحدهم يسمي كاهن ، أما تابعه من الجن فكان يسمى " رئيا " وكانت العرب يستشيرون الكهان في الأمور العظيمة كإعلان الحرب ، أو قتل رجل ، أو وفاء زوجة ، أو قعود عن نصرة أحلاف .... إلخ .

وقد ساعد علي انتشار هذه الخرافات أن العرب كانوا أميين وساعدت بيئتهم علي ذلك أيضاً ، فقد كانوا يتصورون الغول والجن ، وكان الكهنة يتمتعون بنفوذ واسع ومنزلة كبيرة قد يصل هذا النفوذ إلي أكثر من قبيلة أو مجموعة من القبائل فيسيطر عليها سيطرة كاملة .

وأغلب هؤلاء الكهان من اليمن ومن أشهرهم " سطيح الذئبي ، وشق بن مصعب الأنماري " وقد نالا من الشهرة ما جعل الناس يحيطونهما بهالة من الأخبار التي تضعهما في عالم من الخيال الغريب .

فكانـــوا يقولون إن سطيحاً لم يكن له عظم سوى جمجمته ، وكانت ملصقة في صدره ، فليس له عنق ، وهو أحدب .

أما شق فهو نصف إنسان بعين واحدة يد واحدة ورجل واحدة

ومـمـــا يقـــال إنه كان لهؤلاء الكهان أقوال وخطابة كلها كانت تلتزم الـــسجع ، ومن ذلك ما روي من أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القـــيس رق لهم ، فبعث في أثرهم فأقبلوا حتي إذا كانوا علي مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو (عوف بن ربيعة) فقال لبني أسد : " يا عبادي ! فقالوا لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غيـــر المغلب ، في الإبل كأنها الربرب[1] لا يعلق رأسه الصحب ، هـــذا دمـــه ينـــثعب [2] وهو غداً أول من يسلب ، قالوا :ومن هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جياشة لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتي أتوا علي عسكر حجر فهجموا علي قبته وقتلوه .

ومـــن ذلك أيضاً ما ورد في الجزء التاسع من " الأغاني " من خبر هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وكانت في الجاهلية زوجة الفاكة بن المغيـــرة المخزومي وكان بيت زوجها يرده كثير من الناس ، وذات يـــوم اطلع عليها وزوجها وهي نائمة ، وقد خرج من عندها رجل ،

---

[1] الربرب : القطيع من الظباء .

[2] ينثعـــب : يسيل

فساورته الشكوك في زوجته ، وأرسلها لأبيها الذي خرج بها إلى الكهان ليستطلع أمرها واصطحب معه نسوة من قومها وكان معه الفاكة في بعض رجال من قومه فلما قاربوا ديار الكاهن رأى عتبه من ابنته انكساراً وتغيراً ، فقال لها يا بنية : لا تكتميني من أمرك شيئاً ، فإن كان بك من ريبة نرجع ولا بأس عليك فقالت هند : لا والله يا أبت ما ذاك لريبة ولا لفاحشة ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب وأخشى أن يسمني بسمة تبقى علي وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأسلوه لك .[١] ثم خبأ خبيئاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيئهم . ثم جعل يتصفح النسوة واحدة واحدة حتى أقبل على هند وقال لها: انهضي غير رسحاء[٢] ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية .

ولعنا نرى اليوم مثل هذا السجع عند من يدعين معرفة الغيب والحظ في ضرب الرمل والودع والفنجان والطالع وأمثالهن .

---

[١] سأسلوه : سأختبره

[٢] رسحاء : قبيحة

الوصايا والنصائح

الوصايا : لون نثري قريب من الخطابة إلا أنها أضيق حدوداً ، وأقل مساحة منها ، فهي لا تقدم إلا لمن يهتم الموصي بأمرهم كالأب لابنه والأم لابنتها أو شيخ لعشيرته ، وما شابه ذلك .

ويعتمد المقدم للوصية علي خبرة طويلة هي محصلة مجموعة من التجارب التي خاضها في حياته يقدمها لمن يوصيه حتي ينهل ويسترشد بما فيها ، وهذه الوصايا غالباً ما تسدى في أوقات السفر والزواج ، والإحساس بدنو الأجل .

ويعتمد الموصي علي البلاغة والسجع وقصر الجمل ، والاعتماد علي ذكر الشئ ونتائجه ، بمعني أن يقدم نصائحه ووصاياه ويبين أثرها في صيغة الإنسان .

ومن الأمثلة علي ذلك وصية ذي الأصبع العدواني لابنه التي يقول في بدايتها :

أي بني إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتي سئم العيش وإني أوصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته فاحفظ عني :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ... إلخ

وفيها يوصيه بالتمسك بالخلال الحميدة التي ترفعه في أعين الناس حتي يبلغ أرقي المناصب وكما تري فيها صدق العاطفة وبعد النظر والتأني في أفكارها وترتيبها ووضوحها.

ومـــن أشهر الوصايا وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس بنت عـــوف بن محلم الشيباني عند زواجها، ولما حان وقت زفافها علي الحارث بن عمرو ملك كندة زودتها أمها بتلك الوصايا التي تساعدها علي أن تكون زوجة ناجحة ناضجة ، وربة بيت أمينة ، ونواة أسرة قـــوية فقالـــت لها : أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزواج ــ لغني أبويها أو شدة حاجتهما ــ كنت أغني الناس عنه ولكـــن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال . أي بنية إنك فارقت الجـــو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت ، إلي وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً فكوني له أمه يكن لك عبداً واحفظي له خصالاً عشرا يكن لك ذخرا :-

أما الأولي والثانية : فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة

وأمـــا الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواضع عينية وأنفه ، فلا تقع عينه منك علي قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد في وقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

وأمـــا الـــسابعة والثامـــنة : فالاحتراس لماله والإرعاء علي حشمه وعياله وملاك الأمر في المال التقدير وفي العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سراً فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتماً ، والكئابة بين يدية إذا كان فرحاً .

ولعلك تري ما تحمله تلك الوصية من حكمة وبراعة في التعبير وتحليل لنفسية الرجل من هذه المرأة العاقلة ، ولعلك انتبهت أيضاً إلي ما في الوصية من استعارات وأساليب مختلفة تطلبها الموقف وكذلك المحسنات البديعية في السجع ، والمزاوجة ، والوضوح في الألفاظ وقصر الجمل والإطناب بالتكرار والإقناع المبني علي الترتيب في الوصية .

openkandl.com

المفاخرات والمنافرات

المفاخرة : هي مفاخر القوم بعضهم على بعض بما ينسبونه لأنفسهم من ذكر الحسب والنسب .

أما المنافرة : فهي أن يفتخر الرجلان كل منهما على صاحبه ثم يحكمان رجلاً يفصل بينهما ، وسميت منافرة لأن كل منهما كان يسأل الحكم : أينا أعز نفرا .

ومن هذا اللون الأدبي ما كان بين عامر بن الطفيل العامري وعلقمة بن علاثة العامري ، فقد وقف لبعضهما يتفاخران ، وكان مما قاله عامر :

والله لا أنا أشرف منك حسباً ، وأثبت نسباً وأطول سبباً ، وقال علقمة : أنافرك وإني لمذر وإنك لعاقر ، وإني لوفي وإنك لغادر ، وقال عامر : أنافرك وإني أنشر منك أمة وأطول قمة وأبعد همة .... وامتد الأمر بينهما حتي احتكما إلى هرم بن قحطبة الفزاري ، فطرق الناس خوف الفتنة ثم جعل يمهد في التسوية بينهما فأخذ يخوف كل واحد من صاحبه واستدعاهما بعد ذلك في جمع من الناس وقال : لقد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير تقعان على الأرض معاً وتقومان معاً فرضيا بقوله وانصرفا .

ولعـــل هـــذا الفن كان بذرة لما ظهر في العصر الأموي من غرض شـــعري تسمى بـــ " النقائض " وقد ظهرت بوضوح وكثرة واشتهر منها ما كان بين جرير والفرزدق .

obeikandl.com

الأمثال والحكم

نطق العرب في الجاهلية بالحكمة والمثل في أشعارهم وفي نثرهم ، بل وفي أقوالهم العادية ، وانتشرت هذه الحكم والأمثال حتى عني بها وبدراستها علماء العصر العباسي ، وممن سبق إلي ذلك المفضل الضبي وأبو عبيدة ، ثم خلف من بعدهما مجموعة من العلماء أشهرهم : أبو هلال العسكري في كتابه " جمهرة الأمثال " والميداني في كتابه " مجمع الأمثال " .

والحكمة : قول موجز اللفظ يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به ورد علي لسان رجل ذي تجربة وخبرة .

والمثل : قول محكم يدور علي الألسنة ، أو هو قول موجز يشبه مضربه بمورده .

والحكمة والمثل كلاهما يشتركان في الإيجاز والدقة وقوة العبارة ، ووضوح الفكرة ، وروعة الصياغة ، وكلاهما سيق في المناسبات المختلفة فانتشرا وحفظهما العرب ، لقيمتهما وفائدتهما ؛ ولأنهما يتفقان مع حياتهم ونظرتهم فيما حولهم .

ومن الحكم : رب عجلة تهب ريثا ، ومنها : آخر الدواء الكي

ومنها : خير الغني القناعة ، وكذلك : أول الحزم المشورة ، ومنها : العتاب قبل العقاب ، وكذلك : رب أكلة منعت أكلات .

- ويختلف المثل عن الحكمة ، فهو يشير إلي حادثة معينة ضرب المثل فيها لأول مرة ، وتسمي " مورد المثل " ثم يستعمل فيما جاء بعد ذلك من أحداث تشبه الحادثة الأولي ، وتسمي الحادثة الجديدة " مضرب المثل " .

ومعروف أن الأمثال لا تغير ، بل تجري كما جاءت علي الألسنة ، وتبقي ثابتة مدي الزمان ، وإن خالفت قواعد النحو والصرف فقد جاء في أمثالهم : مجبر أخاك لا بطل ، والقياس النحوي مجبر أخوك لا بطل لأن اسم المفعول " مجبر " يرفع ما بعده " نائب فاعل" فقياس أخاك أن تكون أخوك ، بيد أنها لم تغير .

ومن أمثالهم أيضا " أعط القوس باريها " بسكون الياء في باريها والأصل فتحها ، وجاء في أمثالهم أيضا : أجناؤها أبناؤها ، جمعي جاني وباني والأصل جناتها بناتها لأن جاني تجمع علي جناة ، وباني تجمع علي بناة .

- وكذلك لا تتغير صيغة المثل إذا خوطب به المفرد أو المثني أو الجمع ، المذكر أو المؤنث بل تقال بصيغة واحدة للجميع ، وذلك لأن العرب يستجيزون في الأمثال ما لا يستجيزون في غيرها من سائر الكلام .

ومن ذلك قولهم : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، فيقال المثل للمذكر والمؤنث والاثنان والجمع بلفظ واحد .

- ومن أمثالهم :

الـــصيف ضيعت اللبن ، ويضرب لمن يطلب الشئ بعد فوات الأوان وقولهم : لا تعدم الحسناء ذاما وقولهم : قبل الرماء تملأ الكنائن وقـــولهم : أســـمع جعجعة ولا أري طحنا ، ويضرب لمن يقول ولا يفعل وقولهم : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها .

وهذه الأمثال من ناحية المورد تنقسم إلي قسمين :

(١) ما كان مورده حادثة حقيقية

ومـــن ذلـــك قولهم : (يداك وكتا وفوك نفخ) ويضرب المثل لمن يـــرتكب الذنب ويتحمل عاقبته ، وأصل المثل أن قوماً أرادوا عبور خليج ، فجعلوا ينفخون الأوعية الجلدية حتى يستطيعوا العبور عليها إلا أن رجلا منهم لم ينفخ وعاءه نفخاً كاملاً ولم يربطه ربطاً محكماً فلما أخذوا في العبور وتوسط الشخص الماء أخذ الهواء في الخروج من الوعاء ، وقارب الرجل من الغرق فنادي من أصحابه يا فلان ، إني سأموت ، فقال له وما ذنبي يداك وكتا وفوك نفخ .

- ومنه أيضا " قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ومورد هذا المثل أن قبيلتـــين تـــشاجرتا ، وقـــتل من إحداهما شخص ، وحاولت القبائل المجـــاورة الإسراع إلي الصلح حسماً للخلاف ، ودفع الدية ، وبينما هم يخطبون مطالبين أهل القتيل بالرضا بالدية إذ دخلت عليهم جارية تدعي جهيزة فأخبرت المجتمعين أن أهل القتيل قد أخذوا بثأرهم من

القائل . فسكت الخطباء ، فقال قائل" قطعت جهيزة قول كل خطيب " ويـضرب المـثل لمن يأتي بالقول الفصل في القضية عند اختلاف الآراء .

– ومـنه أيضا " جزاء سنمار " وأصله أن سنماراً رجل رومي بني للـنعمان بن امرئ القيس قصر الخورنق بالكوفة فلماء بناه وأحسن بناءه ألقاه النعمان من أعلاه فخر ميتا وذلك حتى لا يبني لأحد مثله ، فقـيل جـزاء سنمار ، ويضرب المثل لمن يقدم الإساءة لمن أحسن إليه.

ومنه أيضا : أخلف من عرقوب ، وما يوم حليمة بسر ، وأبخل من مادر ، وإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقي ..... الخ

٢) ما كان مورده حادثة فرضية " لم تحدث " في الحقيقة .

ومـنها : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، وأصل هذا المثل علي ما حكـته العرب ، أن أخوين أجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصب فيه حية تحميه ، فهبط أحدهما الوادي مخالفاً نصيحة أخيه ، فرعي فيه زمنا ثم نهشته الحية فقتله ، فجاء أخوه إلي الوادي يطلب ثـأره فقالت له الحية : هل لك في الصلح ؟ وأدعك في هذا الوادي وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ، فحلف لها ألا يؤذيها إذا ظلت وفية بمـا قالت ، فلما حسن حاله تذكر أخاه فأخذ فأساً ثم تبعها وضربها فأخطأهـا ، وأثرت الفأس في جحرها فقطعت عنه الدينار ، فخاف

شـــرها ونـــدم فقال لها : هل لك أن نتواثق ونعود كما كنا ؟ قالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، ويضرب المثل لمن لا يفي بالعهد .

وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضربها في جميع أحداثهم وشئون حـــياتهم ، وكثيـــراً مـــا كانـــوا يـــسوقونها فـــي خطابـــتهم .

يقول الجاحظ : (كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمـــثال ســـائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع) فقد أودعوها تجاربهم ، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول .

ومن هذه الأمثال نقف على ما يلي :

أولاً : تعبـــر الأمـــثال عن خلق عربي أو ترشد إلي سلوك معين أو تـــشير إلي أشخاص صاروا قمماً في بعض الصفات ، ومنها ما يدل علي قوة الملاحظة ، وكل هذه المقالات ترتبط بالبيئة ، وتعبر عنها تعبيراً صادقاً خالياً من التصنع .

ثانياً : تمتاز الأمثال بدقتها ووضوح معناها وإيجاز لفظها ، وروعة تشبيهها فضلاً عن كونها مع مضربها استعارة تمثيلية حيث يستعار المثل من مورده لمضربه .

المراجـــع

م	المرجع	المؤلف
١-	الاشتقاق	ابن دريد "تحقيق عبدالسلام هارون"
٢-	الأدب الجاهلي	طه حسين
٣-	الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي .	محمد هاشم عطية
٤-	الأغاني	أبو فرج الأصفهاني
٥-	البيان والتبيين	الجاحظ
٦-	تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي ".....	شوقي ضيف
٧-	تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات
٨-	جمهرة خطب العرب	أحمد زكي صفوت
٩-	الحيوان	الجاحظ
١٠-	دائرة المعارف الإسلامية	
١١-	دراسات في عصري الريادة	محمد العربي
١٢-	ديوان زهير	الهيئة العامة للكتاب
١٣-	شرح المعلقات السبع	أبو عبد الله الحسين ابن أحمد الزوزني
١٤-	الشعر والشعراء	ابن قتيبة "تحقيق أحمد شاكر"
١٥-	الصاحبي في فقه اللغة.....	أحمد بن فارس

obeikandl.com

١٦- طبقات فحول الشعراء ..... ابن سلام الجمحي
١٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ..... ابن رشيق القيرواني
١٨- الفن ومذاهبه في النثر العربي ..... شوقي ضيف
١٩- لسان العرب ..... جمال الدين بن منظور
٢٠- المزهر ..... السيوطي
٢١- الوساطة بين المتنبي وخصومه ..... القاضي الجرجاني
٢٢- الوسيط في الأدب العربي ..... أحمد الإسكندري ومصطفي العناني

obeikandl.com